EXCELLENCE IN ISLAM AND ITS RELATIONSHIP TO CAUSAL TRUST IN THE PROPHET'S SUNNAH

Khemais Messaoud Mohamed Benachour
Assistant Professor,Division Of Call Department And The Origins Of Religion
Umm Al Qura University,Makes Almukkarrama
E-mail: docben590@gmail.com

ABSTRACT
The problem of this study lies in addressing the most important imbalances of the postponement thought who denies the benefit of work, choice and work with reasons; because divine foreknowledge - In their opinion - makes those who work and those who do not work alike, or the belief that working with causes does not confirm the inevitable results, this leads to questioning the importance of work. This study aims to propose an objective vision about the relationship of personal excellence with the doctrine of causal trust. It is a legitimate and confirmed relationship. The method used in this study is the descriptive analytical method, which is suitable for studying Sunnah texts. The most important results of the study are: the believer -Despite his religious commitment- has a wider field to exercise his independence and distinction in the field of permissibility and the original innocence. The study also refuted at the same time misconceptions about work, choice and creativity through a group of hadiths of the Prophet (PBUH), that encourages action according to the general reasons. This study was supported by a number of examples in the areas of health, like taking medication to treat diseases, and directing to store food for prevention and precaution, and what confirms the organic relationship between trust and work with causes and excellence those historical models which showed the distinction of the Muslim individual and his civilization, because of the belief and correct application of the doctrine of trust, this is what encourages us to follow this belief that produced our historical heroes through education programs to create the creative individual and the distinguished society.
Keywords: Excellence, Trust, Reasons, Creativity, Obligation.

التميز في الإسلام وعلاقته بالتوكل السببي في السنة النبوية

خميس مسعود محمد بن عاشور
أستاذ مشارك قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى مكة المكرمة

الملخص

تكمن إشكالية الموضوع في شبهة عبثية الفكر الإرجائي الذي ينفي فائدة العمل والاختيار والعمل بالأسباب لأن العلم الإلهي المسبق –في زعمهم– يجعل العمل وعدمه سواء ، أو الزعم بأن العمل بالأسباب لا يحسم النتائج الحتمية مما ينقص من أهميتها وتهدف هذه الدراسة إلى طرح مقاربة حول علاقة التميز الشخصي بعقيدة التوكل السببي وهي علاقة شرعية ومؤكدة ، وأما المنهج المتبع فيها فهو المنهج التحليلي الوصفي المناسب لدراسة النصوص الحديثية، ومن أهم نتائج الدراسة: أن المكلف على الرغم من التزامه الديني يملك مجالا أوسع لممارسة استقلاليته وحريته وتميزه في إطار المباح والبراءة الأصلية ،كما فندت الدراسة في الوقت نفسه تلك الفهومات الخاطئة حول العمل والاختيار والإبداع وعلاقته بالأسباب وذلك من خلال مجموعة من الأحاديث النبوية التي تحث على الأخذ بالأسباب عامة مع تخصيص الموضوع بأمثلة في مجالات صحية مثل الأمر بالتداوي لعلاج الأمراض ،والتوجيه بتخزين الأغذية من باب الوقاية والاحتياط ، وهذا ما قمت بتفنيده ودحضه في هذه الدراسة، ولا أدل على ذلك من تلك النماذج التاريخية التي جسدت تميز الفرد المسلم حضاريا بسبب الاعتقاد والتطبيق الصحيح لعقيدة التوكل وهو ما يحثنا على استلهام هذه العقيدة التي صنعت أبطالنا التاريخيين من خلال برامج التربية والتعليم لتكوين الفرد المبدع والمجتمع المتميز.

الكلمات المفتاحية: التميز، التوكل، الأسباب، الإبداع، التكليف.

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد:

فتحت السنة النبوية المجال للتميز الشخصي فصار بإمكان المسلم أن يستخدم شيئا من مواهبه المخزنة وقدراته الذاتية في تصريف شؤونه الخاصة والعامة، كما منحت له أيضا حرية شخصية في القيام بالمقاربات الشرعية عن طريق اتخاذ المواقف المتميزة من بعض المسائل المتنوعة التي قد لا تؤثر في أساسيات الإسلام عقيدة وشريعة، هذا التميز هو الذي يجعل المسلم يتمتع بشخصية متفردة عن غيره سيما إذا اقترن بمعتقد صحيح في التوكل الذي يقضي على التردد والخوف ويحث على الشجاعة والإقدام عندما يكون ذلك مطلوبا وفي محله سيما في اتخاذ القرارات التي من شأنها تنمية شخصية الفرد وبالتالي شخصية المجتمع الإسلامي الذي يزخر بنماذج مشرقة صنعت تميزها وقدمت بذلك خدمة للإسلام والمسلمين قديما وحديثا، كل ذلك يضفي على دراستي هذه أهمية خاصة فهي تقدم تلك النماذج الصالحة التي تمثل القدوة التي يحتذي بها المسلمون في كل العصور لأنها استطاعت أن تنزل التوجيهات النبوية على الواقع بمنهجية صحيحة فاقهة.

فالفروق الفردية حقيقة واقعية وعلمية وشرعية، واقعية بما نلاحظه في سلوكات الأفراد وأساليب تفكيرهم، وعلمية بما نلاحظه في التكوين الجيني للخلية البشرية التي تؤكد حقيقة التميز الخِلقي والخُلقي الذي يفرق بين الناس في الصفات الجسدية وأيضا في صفات التفكير وأساليب معالجة القضايا الحياتية المتنوعة، ومن الناحية الشرعية فإن الخالق الحكيم العليم شرع الأحكام التي تناسب مستويات المكلفين وكفاءاتهم وقدراتهم المختلفة.

إشكالية البحث

تكمن إشكالية هذه الدراسة في طرح مقاربة تمكننا من التوفيق بين عبثية الفكر الإرجائي الجبري الذي نشر اليأس في المجتمع الإسلامي باعتبار أنه لا معنى للعمل والاختيار وبالتالي التميز والإبداع ما دام الأمر قد فرغ منه أزلاً وبين حقيقة الخطاب الشرعي الذي يحث على العمل بالأسباب والاختيار الحر وفق إرادة حقيقية تهدف إلى تميز الأفراد عن طريق الاجتهاد وتوظيف الذكاء والفروق الفردية التي تدفع المجتمع الإسلامي نحو تنمية مستدامة وتطور مستمر.

أهدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى فك التعارض الظاهري لنصوص السنة النبوية في موضوع علاقة التميز بالتوكل والعمل بالأسباب التي لا تتنافى مع هذا المعتقد الأصيل في الإسلام الذي له الأثر البالغ على سلوك الفرد وتوجهات المجتمع.

أهمية البحث:

أولا: توضيح علاقة التوكل بالعمل وأن العمل متضمن له وبدون ذلك لا يكون التوكل صحيحا.

ثانيا: التميز هو ثمرة هذا المعتقد وما تحقق في الحضارة الإسلامية كان نتيجة لتلك الحماية التي يشعر بها الفرد المسلم بسبب هذا المعتقد.

ثالثا: علاقة التوكل السببي بالتميز هو التطبيق الذي يفتقده بعض المسلمين بسبب الفهم الخاطئ الذي لا يحقق تلك العلاقة بين التوكل والتميز.

منهج الدراسة

وقد اتبعت المنهج التحليلي في الغالب لوجود العديد من الأحاديث والنصوص المختلفة التي تتطلب البيان والتحليل والاستنتاج، وأيضا يعتبر المنهج الوصفي ضروري للحفاظ على مضامين النصوص من غير تأويل ولا تحريف.

الدراسات السابقة

واما الدراسات السابقة فهي كثيرة درست موضوعي التميز والتوكل منها: **التميز في ضوء السنة النبوية دراسة موضوعية** رسالة ماجستير من إعداد: مها سليمان أحمد أبو نمر. إشراف: د/ زكريا صبحي زين الدين. تؤكد الباحثة في هذه الرسالة – بعد تعريف التميز لغة واصطلاحا – أن التميز سنة كونية وشرعية وبينت أيضا الطرق التي يُكتشف بها المتميزون رجالا ونساء التي سنها النبي صلى الله عليه وسلم ثم تطرقت إلى ميادين التميز ومجالاته وآثاره على الفرد والمجتمع عند السلف من الصحابة ثم في مجتمعنا المعاصر، وأما الدراسة الثانية: **التوكل وعلاقته ببعض سمات الشخصية** لدى طالبات الجامعة الإسلامية بغزة. وهي أيضا رسالة ماجستير من إعداد: تغريد شريف نصر الداية. إشراف: د/ سامي أبو إسحاق وقد بدأت رسالتها بعرض إشكالية بحثها وأهميته وأهدافه وحدوده وفي الإطار النظري عرفت التوكل لغة واصطلاحا ثم بينت علاقته بالشخصية، وتعتبر هذه الدراسة ميدانية حيث خصصت جزءا منها للطرق والإجراءات وتحليل نتنائج الاستبيانات وتفسيرها، والفرق بين هاتين الدراستين وبحثي هذا أنني حاولت الجمع بين نقاط التلاقي بين التميز والتوكل وكيف تؤثر عقيدة التوكل على تميز الأفراد داخل المجتمع الإسلامي قديما وحديثا أما تناولهما في بحث واحد فلم أجد دراسات في ذلك والعلم لله، وقد قسمت هذه الدراسة إلى عدة عناوين [مطالب] تناولَت المفهوم وعلاقة التميز بالتوكل وفك بعض الإشكالات الناتجة عن الفهوم الخاطئة، وفي الأخير نماذج تطبيقية مستلهمة من التاريخ الإسلامي ثم خاتمة تضمنت النتائج وبعض التوصيات، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: التكليف والاستقلالية

المطلب الأول: التميز الشخصي في السنة النبوية

التميز لغة التفرد ويأتي بمعانٍ أخر منها: الانفصال والانعزال وتميز اختلف عن سواه بعلامات فارقة، وتميز الشخص من الغيظ: تقطع وتمزق ومنه: تكاد تميز من الغيظ، [1] والمقصود به هنا تمتع وتفرد بعض الأفراد بمهارات وكفاءات جسمية وعقلية أفضل من غيرهم من الأفراد الآخرين داخل المجتمع ولقد أشار النبي ﷺ إلى أهمية التميز الشخصي وأنه أمر مطلوب شرعا، فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[2].

وعن وابصة أن النبي ﷺ قال: «يا وابصة: استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[3] فالإسلام يؤكد من خلال النصوص الشرعية على ذلك المجال الحر الذي خلقه الله عز وجل في نفس كل مكلف بمفرده والذي هو مصدر ومناط التكليف والمسؤولية. [4] فالمسلم يتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه من غير أن يفقد خصائصه الذاتية المتميزة والتي هي السبب في أن الفرد يخدم مجتمعه من خلال ما يبدعه من أفكار وأساليب ووسائل تساهم في خدمة الأفراد والجماعات وتدفع قطار التنمية والتطوير باستمرار.

واليوم نرى كثيرا من المسلمين لا يستطيعون القيام بأية حركة أو عمل حتى يقصدوا مفتيا يفتيهم في كل شيء حتى فيما استبان من الدين، [5] وصار كثير من المفتين عبارة عن مستشارين اجتماعيين لا أكثر ولا أقل، أو

---

[1] انظر: التميز بتاريخ:2022/10/15م-https://www.almaany.com/ar/dict/ar

[2] الترمذي. محمد بن عيسى بن الضحاك، **السنن**. باب ما جاء في الإحسان والعفو. . ، 364/4.رقم الحديث:2007.تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون . والحديث ضعفه الألباني. أنظر: ضعيف سنن الترمذي. .226/1.ولكن معنى الحديث صحيح وسنده ليس موضوعا أو مكذوبا ويمكن أن يتقوى بمختلف طرقه المروية بألفاظ أخرى ولو كانت كلها ضعيفة سيما على قول من يرى العمل بالضعيف بشروط.

[3] ابن أبي شيبة . أبو بكر بن أبي شيبة . **المسند** .باب ما رواه وابصة بن معبد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. رقم:753 25/2.تحقيق: عادل بن يوسف العزازي واحمد بن فريد المزيدي . وقد صححه الألباني من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

[4] **عكس ما تراه المدرسة الاجتماعية الحديثة التي تنسب إلى عالم الاجتماع الفرنسي** [إيميل دوركايم 1919/1858م] التي تؤكد على انصهار الفرد داخل المجتمع الذي يعيش فيه فتطغى شخصية المجتمع على شخصيته وتسلب منه شيئا من المسؤولية وبالتالي جزءا من شخصيته في الغنم والغرم فالمجرم=يُقاسم المجتمع مسؤولية إجرامه ويصير المجتمع مشاركا في الإجرام الذي قام به فرد واحد منه.انظر على سبيل المثال: قيمة الأشياء الاجتماعية عند إيميل دوركايم . د/زهير الخويلدي ..
https://middle-east-online.com2020/11/21م

[5] عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي =

مرشدين تربويين لبعض الفئات من الموسوسين الذين ما فهموا التدين حق فهه وهم مع مكانتهم الثقافية وشهاداتهم الجامعية أقل فقها من ذلك الأعرابي المغمور الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»[1].

فقد تحصل هذا الرجل على صك شرعي بدخول الجنة – إن صدق– مع أنه لم يكن ينوي فعل شيء من النوافل والمستحبات، بل ربما لم يكن يفكر حتى في تحية المسجد، ومن المؤكد أن مشاغل الأعراب وأهل البادية كثيرة فسأل عن الحد الأدنى الذي يضمن به آخرته من غير تفريط في دنياه، فقد أدرك هذا الأعرابي ذلك المجال الحر في شخصيته وهو المباح وأصل البراءة الذي لا يريد أن يتدخل فيه أحد غيره لأنه متعلق بالشخصية التي تتصرف فيه بإبداعها الخاص، لم يكن هذا الأعرابي فيلسوفا حتى يدرك سُلمًا للأولويات ولكنها الفطرة التي تجنح نحو البساطة واليسر في التفكير سيما إذا تعلق الأمر بواجبات الديانة وفروضها، ولم تكن فلسفته – إن صح أن نقول ذلك — طوباوية مثلما هو حاصل عند كثير من المسلمين من مختلف المستويات الثقافية، وبكل تأكيد سوف يُعلم هذا الرجل الطبيعي أهله وأبناءه بهذه المنهجية في التدين لأنهم إن هم أتقنوها جيدا فلا ريب أن نسائم التزكية ستهب على نفوسهم وسيجدون القوة الكافية التي صنعتها في أرواحهم فرائض الدين وواجباته قبل سننه ومندوباته، وسنعلم نحن بدورنا أن قيام الليل لا يغني عن اغتيال صلاة الصبح شيئا، وأن فتاوى الأكل والشرب وأساليب التنحيف ورياضة السباحة وركوب الخيل لن تعيد للإسلام مجدا ما دامت الفرائض والواجبات مهملة في مقابل التوسع في المستحبات والنوافل والمندوبات، وأن ما يعتقده البعض في هذه التراكمات التحسينية مجاوزة للحد المطلوب في سلم ومراتب التدين وربما استحالت إلى تورمات مرضية في غياب من الأصول المتحتمات والفرائض الواجبات سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات.

وقد توافرت الأحاديث عن النبي ﷺ بهذا المعنى، ومن ذلك ما جاء عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: «أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أدخل الجنة؟ قال: نعم»[2]

القلب. مسلم بن الحجاج القشيري. **الجامع الصحيح**. كتاب المساقاة .باب: أخذ الحلال وترك الشبهات. 1219/3 . رقم: 1599. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

[1] البخاري محمد بن إسماعيل .الجامع **الصحيح [صحيح البخاري]** كتاب الإيمان باب: فضل من استبرأ لدينه. 1/ 18 رقم:46. تحقيق: جماعة من العلماء.

[2] مسلم الجامع الصحيح. باب: **بيان الإيمان** الذي يدخل به الجنة .44/1.رقم: 15. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» [1]

وقال النبي ﷺ فيما رواه النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري: «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة وقيل له ادخل بسلام»[2]. وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: 31]، فالفرائض تهيمن على السنن والمستحبات وتجبرها، مثلما أن اجتناب الكبائر يغطي ويمسح آثار الصغائر.

فالاقتصار على الفرائض يُدخل الجنة، ونقول ذلك لأن كثيرا من الناس يقبلون على النوافل والمستحبات وحتى المباحات ويُفرطون في الواجبات والفرائض، فالناس اليوم مهتمون زائدا بالاستفتاء في شؤون الأكل والشرب والنكاح والطرق المفضلة شرعا للسياحة وممارسة الرياضة وحصص التنحيف وسبل استثمار الأموال بالطرق اللاربوية وغيرها، وكل ذلك مستحسن لا ريب فيه، ولكن بعد الحرص على الواجبات والفرائض أولا وفق ما دلت عليه النصوص الشرعية خاصة من الأحاديث النبوية كما سبق.

المطلب الثاني: التوكل وعلاقته بالتميز

يعتبر التوكل من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر وهو الذي يترجم قيمة العمل في الإسلام، هذه القيمة التي هي أساس بناء الحضارة بكل ما تتميز به من صفات فارقة عن غيرها، وكذلك فإن التوكل هو الميزة الأساسية للشخصية الإسلامية السوية التي هي أساس البناء والتطور الاجتماعي السليم، وهو أيضا المظهر الذي يلائم التدين الصحيح الذي يليق بالفرد والمجتمع.

وحقيقة التوكل صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة وَكِلة الأمور كُلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. قال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان. وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل. وقال الحسن: إنَّ توكُل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته. [3] وعن ابن عباس قال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله. [4] وقيل: التوكل هو قطع

---

[1] البخاري .**الجامع الصحيح** [صحيح البخاري] .كتاب الرقاق . باب التواضع 105/8.رقم: 6502

[2] النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب . **السنن الكبرى**. باب وجوب الزكاة 6/2 .رقم: 2230 .تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي.

[3] ابن رجب الحنبلي .**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**. 497/2.تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس.

[4] أحمد بن حنبل. **الزهد**.239/1. وضع حواشيه:محمد عبد السلام شاهين .

النظر عن الأسباب مع تهيئة الأسباب. [1] وقال ابن مسروق: التوكل هو الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام. [2]

والتوكل في رأي أبي حامد الغزالي: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. [3] وحقيقته عند ابن القيم: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها. [4]

والتوكل أيضا شرط كمال الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، وهو مقتضى الإقامة على الحق: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: 79]، وسبب محبة الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159]. وحاجة كل مسلم إلى التوكل شديدة، وحاجة الدعاة إلى الإصلاح له أشد، قال شعيب عليه السلام لقومه ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. واستعداد النفس لما يُستقبل من صروف الدهر بحزم وثقة في الله بلا خوف أو جزع قال يعقوب عليه السلام: ﴿شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: 67].

لقد بينت السنة النبوية الصحيحة حقيقة التوكل من خلال بعض التطبيقات العملية، فعالجت بها بعض التصورات الخاطئة التي كانت تطرح من حين لآخر سيما وأن المجتمع الإسلامي الأول كان قريب عهد بالجاهلية إضافة إلى رواسب بعض الانحرافات في عقائد أهل الكتاب وعادات الأمم المجاورة، مما كان له تأثير سلبي على شخصية المسلم السوية والقوية المتميزة، ومن بين هذه المسائل –وعلى سبيل المثال لا الحصر– ما كان يعتقده أهل اليمن من ترك التزود في الحج بدعوى التوكل. فقد روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»[5].

ومن ثمرات التوكل الحفاظ على الكرامة الإنسانية، فقد حثت السنة على الاكتساب والعمل وترك الطمع فيما عند الناس، فعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[6] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى

---

[1] بدر الدين العيني .**عمدة القاري شرح صحيح البخاري** . 139/9.

[2] القاري علي بن محمد الهروي. **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**..3115/8 .

[3] الغزالي أبو حامد . **إحياء علوم الدين**.259/4.

[4] ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر.**مدارج السالكين**، 121/2.تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.

[5] البخاري .**صحيح البخاري** . كتاب الحج .باب قوله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى .133/2. رقم:1523

[6] **البخاري .الصحيح** .كتاب البيوع .باب: كسب الرجل وعمله بيده. 57/3.رقم: 2072

ﭐللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: 105]

وحتى الطير فإن الله يرزقها بعد أن تقدم الأسباب من الغدو والرواح، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم توَكَلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». [1]

وقد كان رسول الله ﷺ يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء وهو أفضل البشر وكان يدخر لنفسه قوت سنة حين فتح الله عليه الفتوح[2]

المطلب الثالث: إشكالية العلم المسبق والعمل بالأسباب

كثيرا ما يتساءل الصحابة عن جدوى العمل إذا كان الله قد علم مَن هم أهل الجنة ومَن هم أهل النار فيكون الجواب الشافي منه ﷺ بالحث على العمل وعدم تركه بسبب هذه الإشكالية، فعن أبي عبد الرحمن عن علي قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال: اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل: 10] [3].

فالآية الكريمة بينت أن السعادة والشقاوة مرتبطتين باختيار الإنسان الشرعي وليس بعلم الله القدري المسبق الذي لا يعلمه الإنسان المكلف، فشرط الهداية والفلاح هو السير في طريقهما، ومن سار على طريق الغواية والضلال فقد اختار الضلال والغواية بنفس القوة والإرادة والاستطاعة الأولى، فتحقيق السعادة مرهون باختيار أسبابها وسبلها، والشقاوة بدورها مرهونة باختيار أسباب الغواية والمعصية والخذلان. والتوكل الصحيح معناه أن العمل بالأسباب لا يقدح في التوحيد ولا في الإيمان بالقضاء والقدر مثلما كانت بعض الفئات تزعمه ولا سيما القائلين بإنكار السببية والعلية بدعوى أن ذلك ينافي الإخلاص وكمال التوحيد.

والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أُخرى تعاونها، ولها مع ذلك أضداد تمانعها،

---

[1] الترمذي محمد بن عيسى بن الضحاك الترمذي .**السنن** .باب في التوكل على الله. 573/4 . رقم: 2344.تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي.

[2] ابن بطال علي بن خلف .**شرح صحيح البخاري.** 407/9 تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

[3] مسلم. **الجامع الصحيح**.كتاب القدر. باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته 2039/4.رقم:2647

والمسبَّب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه ويدفع عنه جميع أضداده المعارضة له. فقدرة العبد سبب من الأسباب وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة، فالقدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه الفعل بهذه القدرة، وذلك مثلما خلق الله النبات بالماء وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسبَّبات والمخلوقات بوسائط وأسباب. . وليس إضافة التأثير بهذا المعنى إلى قدرة العبد شركا وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركا (ومعلوم أنها ثابتة)[1].

وقد يكون تساؤل الصحابة على شكل مقدمات واستنتاج منطقي، فيكون الجواب قاطعا مؤكدا أن العقيدة ليس مصدرها العقل البشري والرؤى المتهافتة، وإنما أساسها المنطق العملي الذي يؤكد على النتائج وليس على الاستنتاجات الصورية، زد على ذلك فالعلاقة فيها – فيما بين العبد وربه– علاقة ثقة واستسلام وحب، فعن جابر أن سراقة بن مالك قال «يا رسول الله، فيم العمل؟ أفي شيء قد فُرغ منه؟ أو في شيء نستأنفه؟ فقال: بل في شيء قد فُرغ منه، قال: ففيم العمل إذاً؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له» [2]

وأخرج مسلم من حديث جابر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» وفي الصحيحين مرفوعا من حديث أبي هريرة قال: قال الله: أنا عند ظن عبدي بي. وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم (بن أدهم) قال: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.[3] وقال الحارث المحاسبي: ومن علامة حسن الظن بالله شدة الاجتهاد في طاعة الله. [4]

---

[1] ابن تيمية عبد الحليم بن مجد الدين أبو البركات. **مجموع الفتاوي**. 390389/8. ويفرق الأصوليون بين العلة والسبب بأن العلة هي اسم لكل صفة توجب أمرا ما إيجابا ضروريا، وأن العلة لا تفارق المعلول البتة، ككون النار علة الإحراق والثلج علة التبريد، وأما السبب فليس موجبا للشيء المسبب منه ضرورة. الإحكام. ابن حزم. 563/7.

وعند الزركشي فكل من السبب والعلة يشتركان في توقف المسبب عليهما ويفترقان من جهة أن السبب ما يحصل الشيء عنده لا به والعلة ما يحصل به، وكذلك من جهة أن المعلول متأخر عن العلة بلا واسطة ولا شرط يتوقف الحكم على وجوده، والسبب إنما يقتضي الحكم بواسطة أو بوسائط، ولذلك يتراخى الحكم عنه حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع، وأما العلة فلا يتراخى الحكم عنها إذا اشترط لها بل هي أوجبت معلولا بالاتفاق. الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله. **البحر المحيط**. 147/7.

وقد عاود مبدأ إنكار السببية (العلية) الظهور في العصر الحديث لدى بعض فلاسفة الغرب مثل "مالبرنش (1638م .1715م) و"الأسقف بركلي (1684م .1753م) فقد ردّا الظواهر كلها إلى القوة الوحيدة والعلة المطلقة وهي الله تعالى الذي هو عند "مالبرنش" الخالق والمحرك الوحيد، وليس في مقدور= = جسم أن يحرك جسما آخر ولو اجتمع الإنس والجن من الأفلاك على أن يحركوا فلكا من الأفلاك بل ريشة من الريش المعلق في الهواء دون إرادة الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وأما "دافيد هيوم" (1711م . 1776م) فيرى أن مبدأ السببية ما هو إلا نتيجة مشاهدات سطحية وتعاقب ظاهري، وذلك أنا شاهدنا غير مرة بعض الظواهر يتبع بعضها بعضا فظننا أن هناك علاقة ثابتة بين التابع والمتبوع، فلا نكاد نرى التابع حتى نفكر في المتبوع والعكس، كما أن المخيلة أخذت تصور لنا هذه التبعية التي ما هي إلا تجاور زماني مكاني. انظر: عبد الحميد خطاب. **الغزالي بين الدين والفلسفة**. 505 ف/ 506.

[2] الإمام أحمد. **المسند**. أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه .252/1. رقم:621. تحقيق: أحمد شاكر .دار الحديث. القاهرة: ط:1995م

[3] الصنعاني محمد بن إسماعيل بن الصلاح. **سبل السلام** 466/1 .

[4] المحاسبي الحارث بن أسد. **آداب النفوس**. 150. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

المبحث الثاني: السنة النبوية والدعوة للأخذ بالأسباب

المطلب الأول: الاحتياط للمستقبل

فقد حفلت السنة بالكثير من المواقف والتوجيهات في مجالات عدة تحث على اتخاذ الأسباب والعمل بها مع حسن الظن بالله العالم بما كان وما سيكون واتخاذ الاحتياطات الآنية المستقبلية التي تتعلق باحتمال حدوث الجوائح والمجاعات وما شابه ذلك، وعلى سبيل المثال تلك المتعلقة بالأمن الغذائي، حيث لا يقدح ذلك في عقيدة الرازقية، فالتوكل والثقة بالله سبحانه لا ينافيان العمل بالأسباب وهو ما صح في كثير من النصوص الشرعية، فعن أنس بن مالك فال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل قال اعقلها وتوكل. [1] وهذا لأن التوكل عمل يختص بالقلب والعمل بالأسباب أفعال تختص بالبدن ولا تناقض، وإن وساوس النفس وحديثها لا يُدفع إلا بمراعاة الأسباب، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ﴾[البقرة: 260]، ومتى وسوَست النفس شغلت القلبَ عن وظائفه، فإذا سكنت وسوستها بشيء من الأسباب تشاغلت به عن إيذاء القلب المتوكل الناظر إلى المسبِّب، ومنه ما ورد في الأثر عن سلمان الفارسي: أنهم رأوه يحمل طعاما ويقول: إن النفس إذا أَحرزت قوتها اطمأنت. [2]

والاقتصاد اليوم يعتمد على الادخار والتخزين من أجل إطعام الملايين من السكان، فاتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل إذا كانت هذه الأسباب حقيقية أو بعبارة أخرى قوانين طبيعية أو سنن اجتماعية واقتصادية أوكونية، ففيما يتعلق بالاحتياط للمستقبل ورد عن سلمة بن الأكوع، قال: «قال النبي ﷺ: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وبقي في بيته منه شيء. فلما كان العام المقبل، قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا عام الماضي؟ قال: كلوا وأطعموا وادخروا، فإن ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيها»[3]

وقال: «... ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم»[4]. وقال: «كلوا، وتزودوا وادخروا»[5].

وفي قصة يوسف عليه السلام بيان لأهمية الادخار والتخزين بالطرق الصحيحة التي تحافظ على المادة المخزنة لاستهلاكها في وقت الحاجة والضرورة. قال تعالى ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يوسف 47-49] فقد نجَّا الله تعالى عن طريق نبيه الكريم أولئك القوم من وطأة السنين السبع

[1] **المرجع نفسه** . 150

[2] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن .**كشف المشكل من حديث الصحيحين**.355/4 تحقيق: علي حسين البواب.

[3] البخاري. **الجامع الصحيح** كتاب الذبائح والصيد. باب: ما يؤكل من لحوم الأضاحي. 103/7 .رقم:5569

[4] مسلم **الجامع الصحيح**.باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه. 672/2.رقم:977

[5] **المرجع نفسه** .باب لحوم الأضاحي. 1562/3 . رقم:1971

العجاف بفضل الادخار والتخزين باعتباره سببا صحيحا وإجراءً سليما.

المطلب الثاني: الأسباب الوقائية

ومن أمثلة العمل بالأسباب الصحيحة المتعلقة بالجانب الصحي الوقائي ما يعرف في الدوائر الصحية بالحجر الصحي، فقد روى مسلم عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أهل الأجناد (أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه)، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعوتهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء فقال: ارتفعوا عني، ثم قال ادع لي الأنصار فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظَهر، فأصبحوا عليه فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة – وكان عمر يكره خلافه – نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». قال: فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف. [1] فكان الرأي العملي الصحيح الموافق للعلم والمصلحة هو العمل بالأسباب وهي هنا الوقاية توكلا بمراعاة الأسباب الشرعية دون مصادمة مع قدر الله وعلمه، فالصحابة رضي الله عنهم تفرق رأيهم بين المصلحة والنص فجاء النص أخيرا موافقا للمصلحة فاتخذ أمير المؤمنين عمر قراره وفق ذلك.

ومن التوكل مع اتخاذ الأسباب الأمر بالتداوي، فعن أسامة بن شريك قال: أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير فسلمت ثم قعدت فجاءت الأعراب من ههنا وههنا فقالوا يا رسول الله نتداوى؟ قال: «تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم»[2].

وعن أبي سعيد، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إن أخي استطلق بطنه فقال: اسقه عسلا فسقاه فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقا فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك» [3].

ولذلك ينصح الأطباء اليوم باستعمال الدواء بطريقة صحيحة وأن عدم الالتزام بتوجيهات الطبيب يؤدي

---

[1] مسلم .**الجامع الصحيح**. باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. 1740/4 .رقم:2219

[2] الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد . **معالم السنن شرح سنن أبي داود**. كتاب الطب. باب: الرجل يتداوى. 216/4 .غير مرقم

[3] **البخاري الصحيح**. كتاب الطب. باب: الدواء بالعسل . 128/7 رقم:. 5684

إلى عدم فاعلية الدواء.

أما إذا كانت الأسباب غير حقيقية ولا تعتمد على التجارب السابقة الناجحة في أغلب الأحيان فقد ورد النهي عن استعمالها باعتبارها خرافات وشعوذة منافية للعلم ومنهجه.

وفي سياق التدليل على أن التوكل لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب، ورد الأمر الشرعي بالتداوي، وأن ذلك لا يقدح في حقيقة التوكل[1] سيما في الحالات التي ورد النهي عنها في مواضع والإباحة في مواضع أخر ومن ذلك:

– التداوي بالكي: فقد ورد النهي عنه في مواضع منها ما جاء وعن عمران بن حصين أنه قال: «نهانا رسول الله ﷺ عن الكي فاكتوينا فما أفلحنا ولا أنجحنا»[2]

وعن عقار بن المغيرة بن شعبة عن أبيه قال «قال رسول الله ﷺ: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل»[3].

وفي مواضع أخر وردت نصوص نبوية في إباحة الكي واعتباره من العلاجات المفيدة فعن جابر: «أن النبي ﷺ كوى سعد بن معاذ من رميته». [4]

وعن نافع، عن ابن عمر: «أنه اكتوى من اللقوة، واسترقى من العقرب». [5]

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي». [6]

التداوي بالرقى: ورد النهي عن الرقى باعتبارها من الأسباب الباطلة ومن أفعال الجاهلية الشركية حيث

---

[1] قد يقع التشابه والاختلاط في بعض الألفاظ فكلمة رقية قد يراد بها المشروعة أو الممنوعة والكي قد يكون منه نوع مباح وقد يكون آخر مكروها أو ممنوعا ومن شأن السياقات الكلامية والقرائن أن تحدد المعاني المرادة من المتكلم[الشارع]...وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى مسألة أصولية فقهية وهي التعارض بين النصوص ، فهذا التعارض إذا نظر فيه الفقيه فإنه سرعان ما يكتشف أنه تعارض غير حقيقي ما لم يثبت النسخ أو التخصيص أو التقييد..

[2] البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**.باب ذكر فصول في الدعاء يحتاج إلى معرفتها 395/2.رقم: 2049 .تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد.

[3] الترمذي **السنن** . باب: ما جاء في كراهية الرقية .393/4 رقم:2055 . وقال أحمد شاكر: حديث حسن صحيح

[4] الخطابي .**معالم السنن**.كتاب الطب .ومن باب: الكي 217/4. والحديث صححه الألباني. في صحيح .سنن أبي داود. رميته: الإصابة التي وقعت له يوم الخندق.

[5] البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين.**السنن الكبرى**. باب ما جاء في إباحة قطع العروق والكي عند الحاجة. 576/9.رقم:19556 .تحقيق: محمد عبد القادر عطا .اللقوة اسم للعقاب ، والمقصود شلل بالوجه يجعل الفم قريبا من العين.

38 البخاري **الصحيح**.كتاب الطب. باب: الشفاء في ثلاث. 123/7.رقم: 5681

ويمكن الجمع بين نصوص النهي عن الكي ونصوص الإباحة بالقول: إن الكي علاج استثنائي لحالات مستعصية فقط وكما تقول العرب: آخر الدواء الكي ، وهو علاج مجرب ومعمول به في عصرنا تحت مسمى: الصدمات الكهربائية.

يُطلب بها النفع من غير الله، فالرقية الجاهلية سبب منقطع الصلة عن المسبِّب وهو الله عز وجل، فعن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». [1]

وأما النوع الجائز من الرقى فهو من الأسباب المشروعة المؤسسة على عقيدة التوكل الصحيح وبالطرق الصحيحة، والرقية في حقيقتها عبارة عن دعاء من الراقي يتوجه به إلى الله عن طريق كلام الله عز وجل أو عن طريق دعاء مأثور أو غير ذلك من الكلم الطيب الذي يشرع التوسل به إلى الله رجاء الشفاء منه عز وجل، فعن أنس «أن رسول الله ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة». [2] وأما الحمة فقال ابن قتيبة: الحمة: الحيات والعقارب وأشباهها من ذوات السموم. والنملة: قروح في الجنب. [3]

وأما الطيرة فقد ورد النهي عنها مطلقا وذلك لمنافاتها لعقيدة التوحيد عامة وللتوكل خاصة فالزاجر للطير فقد الصلة مع الله عز وجل وربط مصيره بعملية عبثية من شأنها أن تعطل مصالحه التي يعتبر السفر من أهم أسبابها ولا سيما تلك المنافع الجمة التي هي من نتائجه كالحج والعمرة وزيارة الرحم والتجارة والضرب في الأرض عامة.

عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثا، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل». [4]

وعن أبي هريرة، قال: «قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا صفر، ولا هامة». [5]

فههنا يجب التفريق بين التداوي والطب الذي ثبت بالخبرة والتجربة العلمية وبين الخرص والشعوذة والمحاولات التي لا طائل من ورائها، أو بعبارة أخرى بين الأسباب الصحيحة الشرعية والأسباب الشركية الباطلة.

فالنهي مرتبط بأمرين: الأول مادي والمقصود به أن ذلك من الأعمال التي أثبتت الخبرة العلمية عدم نجاعتها، والثاني معنوي مرتبط بعقيدة التوحيد ومنه التوكل حيث تقدح هذه الوسائل فيهما فورد النهي والتحريم لأن مستعملها متعلق بها لا بالله وراجيا منها النفع لا من الله، وكذلك الإباحة فهي على العكس من النهي فإنها تدل على النجاعة التي ثبتت بالتجربة هذا من الناحية المادية، وأما من الجانب المعنوي فإن هذه الوسائل من الأسباب التي أذن الشرع بها على أنها ليست مستقلة بذاتها في النفع والفائدة إلا من بعد أن يأذن الله عز وجل، فيكون قلب المؤمن وهو يستعمل هذه الأسباب مرتبط بالله لا بها، ومثل هذه الوسائل والأسباب كمثل الدواء الذي يكتبه الطبيب للمريض

---

[1] أبو داود. **السنن**.كتاب الطب.باب في تعليق التمائم..9/4. رقم: 3883 . .والحديث صححه الألباني.

[2] الترمذي **السنن**.باب ما جاء في الرخصة في ذلك .393/4.رقم: 2056 الحمة لدغة ذوات السموم، والنملة قروح تخرج في الجنب

[3] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن **كشف المشكل من حديث الصحيحين**.315/3.

[4] أبو داود **السنن** . أول كتاب الطب باب: في الطيرة .54/6 رقم: 3915.وقوله: (ما منا إلا)، يعني: ما منا أحد إلا ويقع في نفسه شيء عندما يسمع شيئاً من ذلك (ولكن الله يذهبه بالتوكل)

[5] **المرجع نفسه**.كتاب:أول كتاب الطب. باب:في الطيرة .55/6. رقم: 3911 .صححه الألباني

فهو يشترط عليه استعماله بالطريقة الموصوفة كما وكيفا، وكذلك الرقية والكي وغيرها من الوسائل المشروعة فيجب أن يتوفر في مستعملها بعد الإتقان الإخلاص لله والتوكل عليه ورجاء الشفاء منه وحده.

المطلب الثالث: إشكال في حديث ورده

عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي ﷺ يوما فقال: «عرضت علي الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق فرجوت أن تكون أمتي فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرق الناس ولم يبين لهم، فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكنا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ النبي ﷺ فقال: هم الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ فقال: سبقك بها عكاشة». [1]

فلو أمعنا النظر في نص الحديث بكامله وحللناه على أنه وحدة موضوعية وعضوية لألفينا أن بداية الحديث فيها ما ألفت نظر الصحابة الكرام حيث رجا كل واحد منهم أن يكون من هؤلاء السبعين ألفا، ولكن الصحابة ظنوا أنهم ليسوا معنيين بل المقصود أبناؤهم، وذلك لأنهم عاشوا الجاهلية بكل ما فيها من عادات ومعتقدات قبيحة وشركية، وعلى رأس ذلك الرقى الشركية والطيرة والكي الذي كانوا يعتقدون أنه آخر الدواء وأنه سبب مستقل، ولذلك وجب حمل معنى الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون على الأنواع المحرمة التي تقدح في التوكل المبني على الأسباب الصحيحة والسياق يدل على ذلك، ولكن إن وجهنا هذه المعاني على الأنواع الجائزة فذلك لا يدل بالضرورة على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه البعض، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى عند الحيوان البهيم، بل نفس التوكل هو مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، أي: كافيه، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المباحة أو المكروهة كالاسترقاء والاكتواء مع حاجتهم إليها لكمال توكلهم على الله، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل. [2]

ومع ذلك فالقضية مرتبطة بالعقيدة الصحيحة في الله وأنه خالق الأسباب وهو القادر على تعطيلها إذا شاء فمباشرة الأسباب لا بد أن يصحبها الاعتقاد بأن النافع والضار هو الله وحده وقد أنجا الله نبيه إبراهيم عليه السلام من النار التي جعلها سببا للحرق، فالمشركون تعلقوا بهذا السبب ولكن نبي الله تعلق بالمسبِّب خالق الأسباب فأنجاه

[1] البخاري **الصحيح**.كتاب الطب . باب من اكتوى أو كوى غيره. 126/7.رقم:5705

[2] انظر: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . **تيسير العزيز الحميد**. 84 تحقيق: زهير الشاويش.

من الهلاك وخاب ظن المشركين لأنهم فاقدون للصلة مع واضع الأسباب والعلل الذي لو شاء لعطلها.

المطلب الرابع: نماذج تطبيقية من التاريخ الإسلامي

ومن الصفحات المضيئة في تاريخ الإسلام التي هي انعكاس للعقيدة الصحيحة عامة وللتوكل خاصة ما نراه من بصمات التميز والإبداع لقادة وأبطال هذه الأمة الملهمين، فمن ذلك قصة رفض الخليفة عمر بن عبد العزيز للدواء لكمال توكله لا لاعتقاده عدم إباحة التداوي والعلاج المشروع، ومن حلمه وإحسانه عفوه عمن سقاه السم، وكان ملك الروم بلغه أن عمر بن عبد العزيز سُقي فأرسل إليه رأس الأساقفة وكتب إليه يعلمه حاله عنده وما يوجبه من الحق لمثله من أهل الخير وطاعة الله ويقول له: إنه قد بلغني أنك سُقيت وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وأطبهم ليعالجك مما بك فقدم عليه فقال له عمر: أنظر إلي فجسه فقال: سقيت يا أمير المؤمنين قال: فماذا عندك؟ قال: أسقيك حتى أستخرج ذلك من عروقك فقال له عمر: لو كان روح الحياة بيدك ما مكنتك من ذلك ارجع إلى صاحبك لا حاجة لي في علاجك، ودعا بالذي اتهمه فأقر له أنه قد سقاه فقال: ما حملك على ما صنعت قال: خدعت وغررت فقال عمر: نحه خُدع وغُر خلوه ولم يعرض له بشيء. [1]

ولما أقبل خالد بن الوليد يريد الحيرة بعثوا إليه عبد المسيح ومعه سم ساعة فقال له خالد: ما هذا؟ قال سم ساعة قال خالد: هاته فأخذه فوضعه في راحته ثم قال: باسم الله رب الأرض والسماء، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه داء، ثم أكله فانصرف عبد المسيح إلى قومه فقال: يا قوم صالحوهم، فهذا أمر مصنوع لهم. [2]

إن التصور الصحيح لعقيدة القدر وثمرته التوكل هو الذي صنع رجالا من أمثال عمر بن عبد العزيز وخالد بن الوليد وغيرهم كثير ممن علموا أن هذا الدين دين الفطرة فتعاملوا معه بعفوية فلم يفقدوا شخصياتهم التي صنعت تميزهم بين الشعوب والأمم لأنهم فهموا التدين كما أراده الله منهم ورسوله، ونهلوا التعاليم من معين الوحي النقي من شوائب الفكر البشري والمنطق الصوري، فكانت النتيجة بناء صرح لحضارة سامية صارت درة على جبين الإنسانية، ولكن هذا الصفاء تكدر ماؤه بفعل التجاذبات الثقافية والهجمات الفكرية وحتى العسكرية وبدأ الانحدار والتقهقر وبروز التصورات الخاطئة التي أنتجت سلوكات وأفعالا جانَبها الصواب، فظهر الجبر الذي قتل روح المبادرة والإبداع وازداد هذا الانحراف بالتأصيل الممنهج الذي عمدته الرأي والتنظير للمقولات الكلامية البعيدة عن هدي الكتاب والسنة، ومع ذلك فقد ظهر الكثير من العلماء المحققين الذين أدركوا الأبعاد الخطيرة لتلك الانحرافات، فشخصوا الأدواء ووضعوا العلاجات التي هي في الأصل متوفرة في الوحي الإلهي المحفوظ من كل تحريف وتزييف، وهو ميزة هذه الأمة بعكس الأمم الأخرى من أهل الكتاب الذين ضيعوا كتبهم السماوية بالتأويل والتحريف.

---

[1] المصري عبد الله بن عبد الحكم . **سيرة عمر بن عبد العزيز** . 102/1.

[2] الأصبهاني أبو نعيم احمد بن عبد الله .**معرفة الصحابة** .928/2. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي .

إن أساس هذا التجديد يكمن في إصلاح المنهج فالتدين السليم مؤسس على الإيمان بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وعلى الإيمان برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وأن التناقض الذي بسببه ضربت النصوص بعضها ببعض إنما هو نتاج التصورات الخاطئة في العقول وأن نصوص الوحي (كتابا وسنة صحيحة) بريئة من تلك الإسقاطات المذهبية ولذلك جاء في الأثر: اتبعوا فقد كفيتم. [1]

الخاتمة

الفهم القويم لعقيدة التوكل يجعلها محركا لسلوك الفرد المسلم نحو التميز والإبداع لأنها محفز قوي يورث في نفس المسلم شجاعة وحزما ينفيان عنه الخمول والتردد والخوف من اقتحام الملمات مع العمل الدؤوب لتنمية نفسه وبالتالي مجتمعه، وأما الفهم السقيم فإنه يحيل هذه العقيدة إلى تواكل وترك العمل بالأسباب والسنن التي خلقها الله وأودعها في هذه الحياة.

نتائج الدراسة:

تلخيص المعنى الصحيح للتوكل الذي يرتبط عضويا بالأسباب وفق إرادة الخالق وقد بينت خطأ من زعم أن العمل بالأسباب ينافي التوحيد لأن الذي أمر بها هو الله عز وجل والامتثال لأمره هو لب التوحيد، وقد أوردت أمثلة عديدة من السنة النبوية تأمر بالعمل بالأسباب في مجالات صحية واقتصادية وغيرها مما أثبتت التجربة والمنهج العلمي صلاحها وصحتها، وقد ساهمت عقيدة التوكل الصحيحة في ازدهار الحضارة الإسلامية من خلال قادة وأبطال تاريخيين متميزين صنعوا مجد الإسلام وسؤدده بما تحلوا به من ميزات ومهارات جسمية وعقلية مثل القوة والحزم والشجاعة التي أودعتها فيهم عقيدة التوكل السببي وذللت لهم كل الصعاب والعوائق أمام تطورهم وازدهارهم، وحري بنا نحن المسلمين اليوم أن ندعم مناهجنا التعليمية والتربوية بالبرامج التي تستلهم تراث سلفنا الصالح مع التركيز عن المصدر الاعتقادي الصحيح ومن ذلك عقيدة التوكل الذي هو الثمرة اليانعة لعقيدة القدر والدافع لكل مسلم نحو العمل البناء والتميز من أجل تكوين الفرد المبدع والمجتمع المتميز بتميز هذا الدين الفريد من نوعه، والله المستعان وهو الهادي إلى صراطه المستقيم.

التوصيات:

1- تدعيم المناهج التربوية بدراسة عقيدة التوكل الصحيحة لتخريج أجيال عاملة ومبدعة وشجاعة.

2- -دراسة تاريخ وسير القادة والأبطال المسلمين مع بيان تأثير عقيدة التوكل في تميزهم.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد .**سير اعلام النبلاء** .448/8.تحقيق: مجموعة من المحققين.مؤسسة الرسالة .ط:1985م 47

(المصادر والمراجع) REFERENCES

[1] Abd al-Ḥamīd Khaṭṭāb. al-Ghazālī bayna al-Dīn wa-al-falsafah. al-Mu'assasah al-Waṭanīyah lil-Kitāb. al-Jazā'ir. Ṭ: 1986
[2] Abū Bakr ibn Abī Shaybah. al-Musnad. taḥqīq: ʻĀdil ibn Yūsuf alʻzāzy wa-Aḥmad ibn Farīd al-Mazīdī. Dār al-waṭan al-Riyāḍ, Ṭ: 1997m
[3] Abū Muḥammad ʻAlī ibn Ḥazm. al-Iḥkām. Dār al-Jīl. Bayrūt. Ṭ: 2. 1987
[4] al-Aṣbahānī Abū Naʻīm Aḥmad ibn ʻAbd Allāh. maʻrifat al-ṣaḥābah. Abū Naʻīm al-Aṣbahānī. 2/928. taḥqīq: ʻĀdil ibn Yūsuf alʻzāzy Dār al-waṭan alryāḍz1998m
[5] al-Bayhaqī Abū Bakr Aḥmad ibn al-Ḥusayn. al-sunan al-Kubrá. taḥqīq: Muḥammad ʻAbd al-Qādir ʻAṭā. Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah Bayrūt Ṭ: 3. 2003m.
[6] al-Bayhaqī Abū Bakr Aḥmad ibn al-Ḥusayn. shaʻb al-īmān. taḥqīq: ʻAbd al-ʻAlī ʻAbd al-Ḥamīd Ḥāmid. Maktabat al-Rushd. al-Riyāḍ Ṭ: 2003m
[7] al-Bukhārī Muḥammad ibn Ismāʻīl. al-Jāmiʻ al-ṣaḥīḥ [Ṣaḥīḥ al-Bukhārī]. taḥqīq: Jamāʻat min al-ʻulamā'. al-Maṭbaʻah al-Amīrīyah al-Kubrá bi-Būlāq 1311h
[8] al-Dhahabī Shams al-Dīn Muḥammad ibn Aḥmad. Siyar Aʻlām al-nubalā' al-muḥaqqiqīn. Mu'assasat al-Risālah. Ṭ: 1985
[9] al-Ghazālī Abū Ḥāmid. Iḥyā' ʻulūm al-Dīn. Dār al-Maʻrifah Bayrūt Ṭ: 1431h
[10] al-Khaṭṭābī Abū Sulaymān Ḥamad ibn Muḥammad. Maʻālim al-sunan sharḥ Sunan Abī Dāwūd. al-Maṭbaʻah al-ʻIlmīyah Ḥalab Ṭ: 1 1932
[11] al-Miṣrī ʻAbd Allāh ibn ʻAbd al-ḥukm. sīrat ʻUmar ibn ʻAbd al-ʻAzīz. ʻĀlam al-Kutub Bayrūt. Ṭ: 6 1984
[12] al-Muḥāsibī al-Ḥārith ibn Asad. ādāb al-nufūs. taḥqīq: ʻAbd al-Qādir Aḥmad ʻAṭā. Dār al-Jīl. Bayrūt
[13] al-nisā'ī Abū ʻAbd al-Raḥmān Aḥmad ibn Shuʻayb. al-sunan al-Kubrá. Bāb wujūb al-zakāh. taḥqīq: Ḥasan ʻAbd al-Munʻim Shalabī. Mu'assasat al-Risālah. Bayrūt 2001
[14] al-Qārī ʻAlī ibn Muḥammad al-Harawī. Mirqāt al-mafātīḥ sharḥ Mishkāt al-Maṣābīḥ. Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah. Bayrūt 1999
[15] al-Ṣanʻānī Muḥammad ibn Ismāʻīl ibn al-Ṣalāḥ. Subul al-Salām. bi-dūn Ṭ t
[16] al-Tirmidhī Muḥammad ibn ʻĪsá ibn al-Ḍaḥḥāk al-Tirmidhī. al-sunan. taḥqīq: Aḥmad Muḥammad Shākir wa Muḥammad Fu'ād ʻAbd al-Bāqī. Maṭbaʻat Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī Miṣr Ṭ: 2/1975m
[17] al-Tirmidhī Muḥammad ibn ʻĪsá ibn al-Ḍaḥḥāk al-Tirmidhī. al-sunan. taḥqīq: Aḥmad Muḥammad Shākir wa Muḥammad Fu'ād ʻAbd al-Bāqī. Maṭbaʻat Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī Miṣr Ṭ: 2/1975
[18] al-Zarkashī Muḥammad ibn Bahādur ibn ʻAbd Allāh. al-Baḥr al-muḥīṭ. Dār al-Kutubī. 1994
[19] Badr al-Dīn al-ʻAynī. ʻUmdat al-Qārī sharḥ Ṣaḥīḥ al-Bukhārī. Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī. Bayrūt Ṭ: 1431h
[20] Ibn al-Qayyim Shams al-Dīn Muḥammad ibn Abī Bakr. Madārij al-sālikīn,. taḥqīq: Muḥammad al-Muʻtaṣim billāh al-Baghdādī. Dār al-Kitāb al-ʻArabī Bayrūt Ṭ: 1996
[21] Ibn Baṭṭāl ʻAlī ibn Khalaf. sharḥ Ṣaḥīḥ al-Bukhārī. taḥqīq: Abū Tamīm Yāsir ibn Ibrāhīm. Maktabat al-Rushd al-Riyāḍ Ṭ: 3, 2002M
[22] ibn Ḥanbal, Aḥmad, al-zuhd. 1/239. waḍʻ ḥawāshīhi: Muḥammad ʻAbd al-Salām Shāhīn. Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah. Bayrūt. Ṭ: 1999M
[23] ibn Ḥanbal, al-Imām Aḥmad. al-Musnad. taḥqīq Shuʻayb al-Arnā'ūṭ wa-ākharūn. Mu'assasat al-Risālah. 2001M

[24] Ibn Rajab al-Ḥanbalī. Jāmi‘ al-‘Ulūm wa-al-Ḥikam fī sharḥ khamsīn ḥadīthan min Jawāmi‘ al-Kalim. taḥqīq: Shu‘ayb al-Arnā’ūṭ wa-Ibrāhīm Bājis. Mu’assasat al-Risālah. Bayrūt 2001

[25] Ibn Taymīyah Taqī al-Dīn Abū al-‘Abbās ‘Abd al-Ḥalīm ibn Majd al-Dīn Abū al-Barakāt. Majmū‘ al-fatāwī. taḥqīq: ‘Abd al-Raḥmān ibn Muḥammad Ibn Qāsim Majma‘ al-Malik Fahd li-Ṭibā‘at al-Muṣḥaf al-Sharīf. al-Madīnah al-Munawwarah. Ṭ: 1995m

[26] Muslim ibn al-Ḥajjāj al-Qushayrī. al-Jāmi‘ al-ṣaḥīḥ. [Ṣaḥīḥ Muslim] taḥqīq: Muḥammad Fu’ād ‘Abd al-Bāqī. Maṭba‘at ‘Īsá al-Bābī al-Ḥalabī. Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī. Bayrūt. Ṭ: 1995

[27] Sulaymān ibn ‘Abd Allāh ibn Muḥammad ibn ‘Abd al-Wahhāb. Taysīr al-‘Azīz al-Ḥamīd. taḥqīq: Zuhayr al-Shāwīsh. al-Maktab al-Islāmī Bayrūt. Ṭ: 2002